ملفّ العدد

الكتــاب المدرســيّ: من ثُنائيّة الماضي إلى تكامل المستقبل

د. محمّد جمال محمّد

في قلب المشهد التعليميّ المتغيّر باستمرار، تتصادم جاذبيّة الكتاب المدرسيّ الورقيّ الراسخة مع إغراءات المستقبل الرقميّ الواعدة. تتجاوز هذه المقالة حدود هذه الثنائيّة التقليديّة، لتستكشف بعمق وظيفة الكتاب المدرسيّ، وتؤكّد ضرورة استثمار التنوّع في الأدوات والمنهجيّات التعليميّة، لتمكين المتعلّمين وتحرير فكرهم، راسمين خارطة طريق نحو بيئة تعلّم نشطة وفعّالة تحتفي بالتنوّع، وتطلق العنان لإمكاناتهم.

الكتاب المدرسيّ الورقيّ: من إرث التنظيم إلى نقطة انطلاق نحو تكامل تعليميّ أوسع

يسعى هذا المحور لتجاوز النظرة التقليديّة لهذا الرفيق الدائم، من مجرّد وعاء للمعرفة، إلى نقطة انطلاق حيويّة نحو رؤية تعليميّة أكثر شموليّة وتكاملًا، تستثمر كامل ثراء الأدوات والمنهجيّات المتاحة. وهو كما يلي:

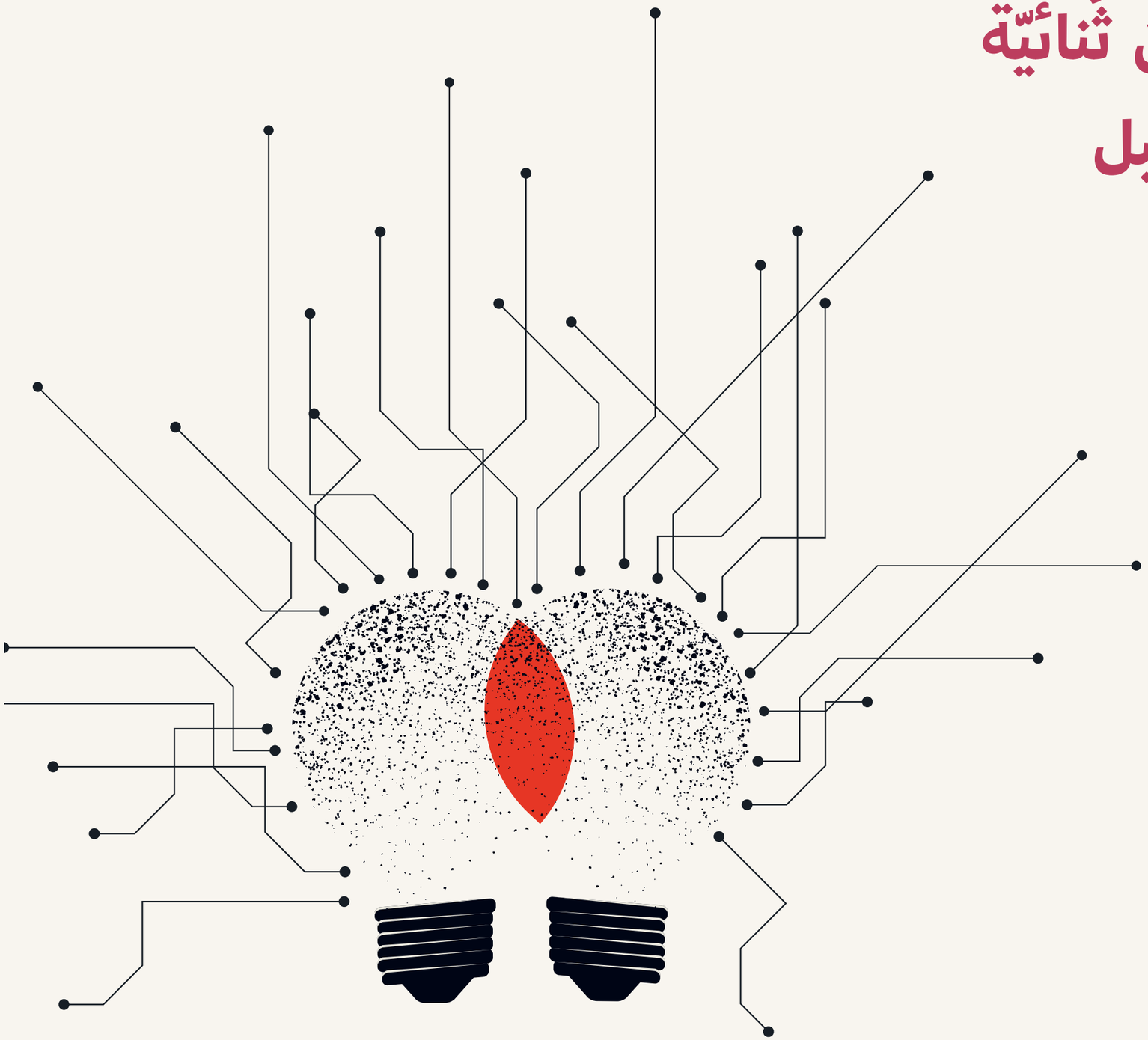

- الإرث الراسخ للكتاب المدرسيّ وقيمته التقليديّة: لطالما تبوّأ الكتاب المدرسيّ الورقيّ مكانة محوريّة في صميم العمليّة التعليميّة، مستمدًّا قوّته من إرث تاريخيّ وميزات تقليديّة رسّخت حضوره. فقد كان يمثّل وعاءً للمعرفة تخضع لرقابة الخبراء، ومنظّمًا للمحتوى الدراسيّ، ما يوفّر إطارًا هيكليًّا واضحًا لكلّ من المعلّم والمتعلّم. كما ارتبط بتجربة حسّيّة مباشرة بتصفّح الصفحات والتفاعل الملموس مع المادّة، وهو ما يمثّل قيمة لا يمكن إنكارها في عمليّة التعلّم.
- دور الكتاب في عصر الإمكانيّات الرقميّة: مع بزوغ فجر العصر الرقميّ وما يحمله من إمكانيّات هائلة، يبرز تساؤل أساسيّ يتجاوز مجرّد المفاضلة بين جاذبيّة الماضي وإغراءات المستقبل الرقميّ. يتعلّق هذا التساؤل بتقييم دور الكتاب المدرسيّ في سياق أوسع من الأدوات والمنهجيّات التعليميّة المتاحة. فهل يجب أن يظلّ حجر الزاوية الوحيد؟ أم أنّه يمثّل نقطة انطلاق نحو تكامل مدروس، يستثمر تنوّع المشهد التعليميّ لتمكين المتعلّمين وتحرير فكرهم؟
- ميزات الكتاب التقليديّة، وتقييم موقعه في سياق تعليميّ متطوّر: إنّ استعراضنا لميزات الكتاب المدرسيّ التاريخيّة، مثل تنظيم المحتوى وتوفير إطار هيكليّ، وتجربته الحسّيّة المباشرة، لا يهدف إلى التقليل من أهمّيّته، بل إلى محاولة فهم موقعه ضمن سياق تعليميّ متطوّر. ففي الوقت الذي تقدّم فيه التكنولوجيا مصادر معلومات غزيرة ومتجدّدة وتفاعليّة، وتتيح مرونة في تخصيص تجربة التعلّم، يصبح من الضروريّ إعادة تقييم الدور الذي يؤدّيه الكتاب المدرسيّ، وكيف يمكن دمجه بفعّاليّة ضمن منظومة تعليميّة أوسع.
- ضرورة تجاوز الجوانب التقنيّة والحسّيّة نحو فحص نقديّ لوظيفة الكتاب: هذا التقييم لا يمكن أن يقتصر على الجوانب التقنيّة أو الحسّيّة فقط، بل يجب أن يمتدّ ليشمل فحصًا نقديًّا لوظيفة الكتاب المدرسيّ نفسها. فهل يمثّل الكتاب المدرسيّ مجرّد أداة محايدة لنقل المعرفة، أم أنّه قد يحمل في طيّاته رؤى وتوجّهات معيّنة، تستدعي التفكير والتساؤل؟ إنّ فهمنا العميق لإمكانات الكتاب وحدوده في عصرنا الحاليّ، يمثّل الخطوة الأولى نحو تبنّي تكامل حقيقيّ يخدم أهدافًا تعليميّة أسمى.

في ضوء ما سبق، يمثّل الكتاب المدرسيّ الورقيّ، بما يحمله من إرث راسخ وقيمة تقليديّة في تنظيم المعرفة وتوفير تجربة حسّيّة مباشرة، نقطة انطلاق مهمّة نحو رؤية تعليميّة أكثر شموليّة. ففي عصر الإمكانيّات الرقميّة، يستدعي الأمر تجاوز النظرة التقليديّة للكتاب، وتقييم دوره في سياق أوسع من الأدوات والمنهجيّات التعليميّة المتاحة، مع فحص وظيفته بشكل نقديّ لضمان تحقيق تكامل حقيقيّ، يخدم أهدافًا تعليميّة أسمى.

الكتاب المدرسيّ: بين بناء المعرفة والهيمنة الأيديولوجيّة

في مقابل الصورة التقليديّة للكتاب المدرسيّ بصفته وعاء محايدًا للمعرفة، يتبنّى هذا المحور منظورًا نقديًّا لوظيفته الحقيقيّة. فبدلًا من كونه أداة بناء للمعرفة فحسب، يُنظر إليه هنا باعتباره أداة محتملة للهيمنة الأيديولوجيّة. نسعى في هذا المحور لتفكيك الحجج التقليديّة المؤيّدة لأهمّيّة الكتاب المدرسيّ في ضوء هذه الاعتبارات النقديّة، على الشكل الآتي:

- التشكيك في الوظيفة التسليميّة: بدلًا من التسليم بوظيفة الكتاب المدرسيّ باعتباره أداة محايدة لنقل المعرفة، يجب

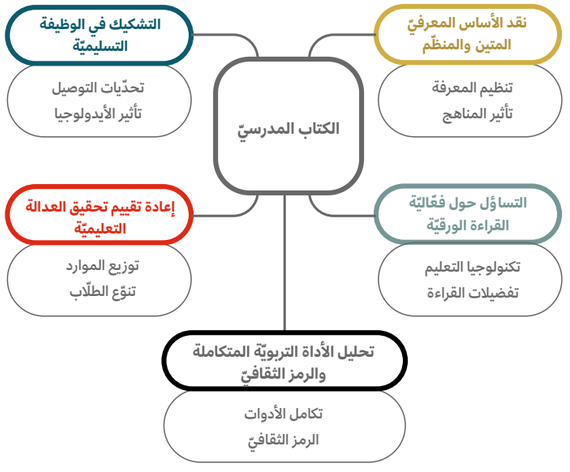

النظر إليها بعين ناقدة. فوظيفة بناء المعرفة التي يُروّج لها قد تكون في الواقع أداة قويّة، تستخدم لفرض رؤية وأيديولوجيّة معيّنة على النشء، وتوجيه تفكيرهم ضمن أطر محدّدة تخدم مصالح محدّدة.

- نقد الأساس المعرفيّ المتين والمنظّم: ما يُقدّم على أنّه أساس معرفيّ موحّد ومنظّم، قد لا يكون إلّا عمليّة لترسيخ رؤية أحاديّة للعالم والتاريخ. هذا الهيكل الواضح والمتسلسل قد يُعيق التفكير النقديّ المستقلّ، ويُهمّش الروايات والأصوات البديلة، بدلًا من تشجيع المتعلّمين على استكشاف وجهات نظر متنوّعة، والبحث عن الحقائق من مصادر متعدّدة.

- التساؤل حول فعّاليّة القراءة الورقيّة: بينما تشير الدراسات إلى أهمّيّة القراءة الورقيّة في تعزيز الفهم، يجب أن يرتبط ذلك بطبيعة المحتوى. فإذا كان هذا المحتوى مُصاغًا لغرس قيم وأنماط تفكير محدّدة، فإنّ التركيز الذي توفّره القراءة الورقيّة يصبح آليّة أكثر فعّاليّة لعمليّة التلقين الأيديولوجيّ.
- إعادة تقييم تحقيق العدالة التعليميّة: قد تخفي فكرة أنّ الكتاب المدرسيّ يحقّق العدالة بتوفير مورد تعليميّ موحّد للجميع، حقيقة أنّه يحمل في طيّاته رؤية ثقافيّة وفكريّة مهيمنة. فبدلًا من ضمان تكافؤ الفرص، قد يسهم هذا التوحيد في إقصاء التنوّع، وتكريس وجهة نظر واحدة تُقدّم على أنّها الحقيقة المطلقة.
- تحليل الأداة التربويّة المتكاملة والرمز الثقافيّ: يطرح اعتبار الكتاب المدرسيّ أداة تربويّة متكاملة ورمزًا ثقافيًّا، تساؤلًا حول الجهة التي تحدّد معايير هذا التكامل والرمزيّة. غالبًا ما تعكس هذه المعايير قيم الفئة المهيمنة في المجتمع ومعتقداتها، وتعمل على إعادة إنتاجها وتكريسها في أجيال جديدة بواسطة المناهج الدراسيّة.

يتّضح ممّا سبق أنّ النظرة إلى الكتاب المدرسيّ يجب أن تتجاوز التوصيفات التقليديّة البسيطة. فبدلًا من اعتباره مجرّد وسيلة لنقل المعلومات، يستلزم الأمر فحصه بعين ناقدة، للكشف عن دوره المحتمل في ترسيخ رؤى أيديولوجيّة معيّنة، وتهميش الأصوات الأخرى. إنّ فهم هذه الديناميكيّة المعقّدة ضروريّ لإعادة تقييم مكانة الكتاب المدرسيّ، في منظومة تعليميّة تسعى حقًّا لتمكين التفكير النقديّ وتعزيز التنوّع الفكريّ.

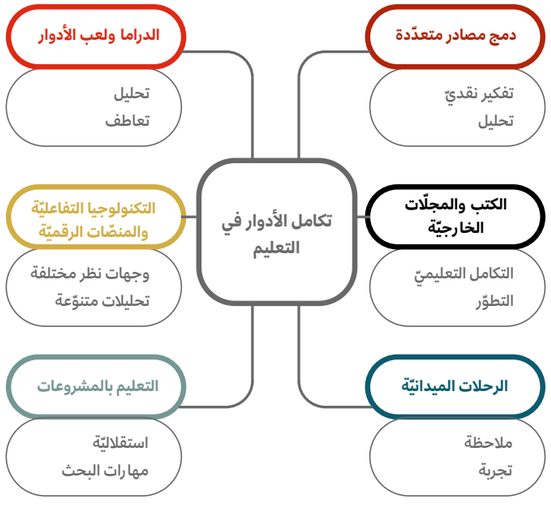

نحو تكامل الأدوار: استثمار التنوّع لتمكين المتعلّم وتحرير الفكر

في سياق التحدّيات الفكريّة والمعرفيّة التي يفرضها الاعتماد الحصريّ على الكتاب المدرسيّ، يتبنّى هذا المحور رؤية تكامليّة تستثمر تنوّع المشهد التعليميّ. لم يعد الهدف استبدال المعلومات، بل تقديم أدوات ومنهجيّات تعالج المشكلات، وتفتح آفاق المعرفة، وتعزّز حرّيّة الفكر، وتقوّض هيمنة "الفكر الواحد". وهي:

- التكنولوجيا التفاعليّة والمنصّات الرقميّة: تُعالَج محدوديّة "الفكر الواحد" بإتاحة الوصول إلى مصادر معرفيّة متعدّدة ومتنوّعة، تعرّض المتعلّم إلى وجهات نظر مختلفة وتحليلات متنوّعة للموضوع نفسه، ما ينمّي لديه القدرة على التفكير النقديّ والمقارنة وتكوين فهمه الخاصّ، بدلًا من الاكتفاء برواية واحدة. يعزّز هذا حرّيّة الاستكشاف، ويُمكّن المتعلّم من التعمّق في جوانب مختلفة للموضوع وفقًا لاهتماماته.
- الكتب والمجلّات الخارجيّة: تُقدّم بدائل معرفيّة متنوّعة تتجاوز الإطار الضيّق للمنهج الرسميّ، وتعرّض المتعلّمين لأفكار وسياقات جديدة، وتحفّز لديهم التساؤل والبحث المستقلّ عن المعرفة، ما يقلّل من التلقين، ويشجّع على تكوين رؤى شخصيّة.
- التعليم بالمشروعات: يمنح المتعلّمين حرّيّة اختيار مواضيع التعلّم وأساليب البحث، ما يعزّز لديهم الشعور بملكيّة المعرفة، ويدفعهم إلى استكشاف مصادر متنوّعة بشكل فعّال. تسهم هذه الاستقلاليّة في تنمية مهارات البحث والتحليل النقديّ للمعلومات التي يجمعونها.
- الرحلات الميدانيّة: تُقدّم تجارب واقعيّة ومباشرة تربط المفاهيم النظريّة بسياقاتها العمليّة، وتساعد المتعلّمين في بناء فهمهم الخاصّ بالملاحظة والتجربة، بدلًا من الاعتماد فقط على التفسيرات الجاهزة في الكتاب المدرسيّ؛ إذ تعزّز الاستكشاف الحسّيّ والعقليّ، وتفتح آفاقًا جديدة للفهم.
- الدراما ولعب الأدوار: تشجّع المتعلّمين على تبنّي وجهات نظر مختلفة وتقييمها بشكل نقديّ، فهي تتطلّب منهم فهم الدوافع والسياقات المتنوّعة، ما يعزّز لديهم مهارات التحليل والتعاطف، ويقلّل من تبنّي رؤية واحدة للأمور.
- دمج مصادر متعدّدة: عند التعرّض إلى مجموعة متنوّعة من الأدوات والمصادر، يصبح المتعلّم مُطالبًا بـتقييم مصداقيّة المعلومات، والمقارنة بينها، وتكوين رؤيته

الخاصّة بناءً على تحليل نقديّ، ما يعزّز لديه مهارات التفكير النقديّ والتحليليّ، ويقلّل من الاعتماد السلبيّ على مصدر واحد للمعلومات.

في ضوء ما سبق، يمكن القول إنّ هذه البدائل التكامليّة تسعى لتجاوز القيود الفكريّة والمعرفيّة للكتاب المدرسيّ، عن طريق تمكين المتعلّم من الوصول إلى مصادر متنوّعة، وتشجيعه على الاستكشاف النقديّ، وتنمية مهارات التفكير المستقلّ، وبالتالي فتح آفاق أوسع للمعرفة، وتحرير الفكر من هيمنة الرأي الواحد.

تفعيل التكامل في الممارسة التربويّة

بعد استعراض تحدّيات الكتاب المدرسيّ ووظيفته النقديّة وأهمّيّة التكامل، ينتقل هذا المحور إلى استكشاف الآليّات العمليّة لتفعيل هذا التكامل في البيئة التعليميّة، وتحويل الأفكار النظريّة إلى ممارسات تربويّة ملموسة، لتحقيق تعلّم أكثر شموليّة وفعّاليّة وحرّيّة. وهو كما يأتي:

- تصميم مناهج مرنة ومتكاملة: لم يَعُد الكتاب المدرسيّ المصدر الوحيد للمناهج. يتطلّب التكامل تصميمًا ديناميكيًّا يستثمر نقاط قوّة الأدوات والموارد التعليميّة المتنوّعة، منها الكتاب والتكنولوجيا والأنشطة والمصادر الخارجيّة، ويفعّلها لخدمة أهداف التعلّم.
- إشراك المتعلّمين في تصميم عمليّة التعلّم: يمكن تعزيز التكامل بإعطاء المتعلّمين دورًا فعّالًا في اختيار الأدوات والموارد التعليميّة التي تناسب أنماط تعلّمهم واهتماماتهم. يزيد هذا من دافعيّتهم ومشاركتهم، ويجعل عمليّة التعلّم أكثر تخصيصًا.
- تطوير ممارسات تدريسيّة مبتكرة: يتطلّب تفعيل التكامل تحوّلًا في دور المعلّم من مُلقّن للمعرفة إلى مُيسّر وموجّه للتعلّم، ما يستدعي تبنّي استراتيجيّات تدريسيّة مبتكرة، تستثمر التكنولوجيا لإثراء المحتوى والتفاعل، وتوظّف الأنشطة والمشاريع لتعميق الفهم وتنمية المهارات.
- تهيئة بيئات تعلّم محفّزة وداعمة: يشمل التكامل تصميم بيئات ماديّة ورقميّة متنوّعة تشجّع الاستكشاف والبحث والتعاون والتفكير النقديّ، وتوفّر فرصًا متكافئة للتفاعل الحرّ مع الأدوات والموارد التعليميّة.
- تقويم شامل ومتنوّع للتعلّم: يتطلّب التكامل تقويمًا شاملًا ومتنوّعًا يتجاوز الاختبارات التقليديّة، ويركّز على قياس الفهم العميق، وتنمية المهارات المختلفة، مع الأخذ في الاعتبار تفاعل الطلّاب مع مختلف الأدوات والموارد التعليميّة.
- تنمية الكفايات المهنيّة للمعلّمين: يتطلّب تحقيق التكامل الفعّال تأهيل المعلّمين، وتزويدهم بالكفايات اللازمة لاستخدام مختلف الأدوات والمنهجيّات التعليميّة بفاعليّة، وتصميم الأنشطة المتكاملة، واستخدام التكنولوجيا تربويًّا، وتوظيف استراتيجيّات تدريس متنوّعة، وتقويم تعلّم الطلّاب بشكل شامل.
- بناء مجتمعات تعلّم تعاونيّة: يمكن للتكامل أن يدعم بناء مجتمعات تعلّم تفاعليّة، سواء داخل الفصل الدراسيّ أو خارجه، عبر المنصّات الرقميّة. يشجّع ذلك على تبادل الأفكار والخبرات بين المتعلّمين والمعلّمين، ويعزّز التعلّم من الأقران.
- توفير الدعم التقنيّ والبنية التحتيّة اللازمة: لضمان تفعيل التكامل بشكل فعّال، من الضروريّ توفير بنية تحتيّة تقنيّة قويّة، وتدريب مستمرّ للمعلّمين والطلّاب على استخدام الأدوات الرقميّة المتنوّعة.
- تشجيع البحث والتجريب في الممارسات التربويّة: على المؤسّسات التعليميّة تشجيع المعلّمين على البحث والتجريب باستخدام طرق مبتكرة، لدمج الأدوات والموارد التعليميّة المختلفة، وتقييم فعّاليّتها في تحقيق أهداف التعلّم.
- تضمين أولياء الأمور في عمليّة التكامل: يمكن لأولياء الأمور أن يمارسوا دورًا مهمًّا في دعم التكامل، عن طريق فهمهم الأدوات والموارد المستخدمة في تعلّم أبنائهم، وتشجيعهم على استخدامها في المنزل.
- تطوير سياسات تعليميّة داعمة للتكامل: على المستوى الأوسع، تحتاج الأنظمة التعليميّة إلى تطوير سياسات تدعم التكامل، وتوفّر الموارد والتوجيه اللازمين للمؤسّسات التعليميّة والمعلّمين، لتنفيذ هذه الرؤية بفعّاليّة.
- تكييف التكامل مع السياقات الثقافيّة والمحلّيّة: يجب تفعيل التكامل بطريقة تراعي السياقات الثقافيّة والمحلّيّة للمؤسّسات التعليميّة والمجتمعات التي تخدمها، مع الاستفادة من الموارد المتاحة محلّيًّا.

***

في الختام، يتّضح أنّ التعليم لم يعد محصورًا في ثنائيّة الكتاب المدرسيّ والتكنولوجيا، بل يتطلّب استثمارًا واعيًا للتنوّع الغنيّ في المشهد التعليميّ الراهن. إنّ تجاوز النظرة التقليديّة إلى الكتاب المدرسيّ، وفحص وظيفته النقديّة، وتبنّي تكامل مدروس للأدوات والمنهجيّات، وصولًا إلى تفعيل هذا التكامل في الممارسة التربويّة، يمثّل مسارًا حتميًّا نحو بناء بيئات تعلّم أكثر شموليّة وفعّاليّة وحرّيّة. إنّها رحلة تهدف إلى تمكين المتعلّمين، وتحرير عقولهم، وإطلاق العنان لإمكاناتهم الكاملة، في عالم يتطلّب التفكير النقديّ والإبداع والقدرة على التكيّف.

د. محمّد جمال محمّد
عضو هيئة تدريس في كلّيّة التربية بجامعة أسوان
مصر